الآثار الاقتصادية والسكانية للأمراض المتوطنة والمنتشرة

في الأمصار الإسلامية خلال العصور الإسلامية الأولى

م. د. مهند نافع خطاب المختار(*)

تعرضت الدولة الإسلامية وخلال القرنين الأول والثاني الهجريين لأنواع عديدة من الأمراض المتوطنة كالملاريا والبلهارزيا والحصبة والحمى والسل والجذام ولا يخفى تأثير هذه الأمراض على الإنسان وعلى الناتج الزراعي والحيواني، وعلى الاقتصاد بشكل عام، ومن هذا المنطلق فان تأثير الأمراض والأوبئة له انعكاس سلبي على جميع نواحي الحياة.

وقد تعرضت كتب الجغرافيين العرب لذكر عدد من المناطق وأمراضها واعتقد الكثير منهم إن هناك علاقة بين المناخ والأمراض وعبروا عن ذلك "بأمزجة البلدان وأهوائها"(1) و " فساد الهواء"(2)، وأشار ياقوت الحموي في مقدمة معجمه إلى إن الأطباء في حاجة إلى معرفة جغرافية البلدان، وذلك بقوله: "ومن كمال المتطبب أن يتطلع إلى معرفة مزاجها وهوائها – يعني البلدان – وصحة أو

(*) مدرس مساعد - قسم الفلسفة – كلية الآداب / جامعة الموصل.

(1) ياقوت الحموي، شهاب الدين أبي عبدالله الحموي الرومي البغدادي، معجم البلدان، (دار صادر – بيروت، 1975م)، ج1، ص9.

(2) ابن قرة، سنان ثابت، الذخيرة في علم الطب، (المطبعة الأميرية – القاهرة، 1928م)، ص167.

سقم منبتها ومائها، وصارت حاجتهم إلى ضبطها ضرورية وكشفهم عن حقائقها فلسفية"[3]، ولذلك صنف كثير من المؤرخين كتباً في الجغرافية وأخرى في أمزجة البلدان وأهوائها[4]، وأشاروا إلى عدد كبير من المناطق الموبوءة بالإمراض المتوطنة كما إن كثيرا منهم من فسر أسباب انتشارها.

وليس بخاف ما لبعض هذه الأمراض المتوطنة، كالملاريا والبلهارزيا وغيرهما من تأثير كبير على الشعوب والجماعات، فالسكان المصابون بالحمى والملاريا مثلا يتعرضون لحالات مرضية سيئة جدا وينعكس ذلك على قدرتهم في العمل والإنتاج لان قواهم منهكة وقدراتهم ضعيفة، هذا فضلا عن تأثيرهما على عوامل تحديد الزراعة وعدم التوسع فيها ولاسيما الملاريا[5]، فالأمراض المتوطنة تكون أكثر خطورة واكبر أثرا في المجتمع، ذلك لأنها متوطنة في البيئة، ومستمرة في التأثير على سكان المنطقة لفترات زمنية طويلة، ولهذا سنتناول في هذه الصفحات دراسة لعدد من المناطق التي أشارت إليها المصادر التاريخية والجغرافية والأدبية والفقهية وغيرها على أنها مواطن لهذه الأمراض.

---

(3) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج1، ص9.

(4) ابن رسته، أبو علي احمد بن عمر، الاعلاق النفيسة، (مطبعة بريل – مدينة ليدن، 1891م)، ص99 وما بعدها، وانظر ابن الفقيه، أبو بكر احمد بن محمد الهمداني، مختصر كتاب البلدان، (مطبعة بريل – مدينة ليدن، 1302م)، ص 150-158؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج1، ص9.

(5) العلي، صالح احمد، ملكيات الأراضي في الحجاز في القرن الأول الهجري، (مجلة العرب – الرياض، السنة الثالثة، 1969م)، ج11، ص 790؛ مارين، مانويلا: ملاحظات عن الأمراض المتوطنة والمنتشرة خلال العصور الإسلامية الأولى، (مجلة الأبحاث- بيروت، السنة 28؛ 1980)، ص15.

لم تتعرض بلاد نجد والحجاز للكثير من الأوبئة والأمراض خلال القرن الأول للهجرة، إلا أنهما كانتا معروفتين ببعض الأمراض المتوطنة، فالمدينة المنورة مثلاً كانت معروفة بانتشار الحمى بين سكانها، ووبائها معروف في الحقبة السابقة للإسلام(6).

وترد رواية عن إصابة المسلمين المهاجرين بالمدينة المنورة في السنة الأولى واعتلال صحتهم من جراء الحمى، وهي من الصعوبات التي واجهتهم وكان عليهم محاولة التكيف مع المناخ السائد في المدينة(7)، وهو مناخ لا يختلف كثيرا عن مناخ الجزيرة العربية العام، إلا أن كثرة الزراعة وعدم تصريف المياه لقلة الأيدي العاملة جعل المناخ وبائياً(8)، ومما يدلل على ذلك قول عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها: "وقدمنا المدينة وهي أوبا ارض الله، وكان بطحان يجري نجلا – يعني ماء أجنا –"(9)، وفي رواية ثانية عنها أيضا: "قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وهي أوبأ ارض الله وواديها بطحان نجلا"(10)، ويتضح من هذا النص تأثير المياه الآسنة والملوثة أيضا، إذ ان هناك ودياناً كثيرة في المدينة المنورة ومنها وادي بطحان تبقى المياه فيه مدة طويلة من الزمن وهي مياه راكدة، وقد حفر أهل

(6) ابن كثير، عماد الدين أبو الفدا إسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي، البداية والنهاية، (دار ابن كثير –= بيروت، د. ت)، ج3، ص223.

(7) الإمام مسلم، أبو الحسن مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري، صحيح مسلم، (دار المعرفة – بيروت، د. ت)، ج4، ص 119؛ ابن إدريس، عبدالله عبدالعزيز، مجتمع المدينة في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، (مطابع جامعة الملك سعود- الرياض، 1982م)، ص 103.

(8) ياسين، نجمان، التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في المدينة في القرن الأول الهجري، (رسالة دكتوراه مقدمة إلى كلية الآداب – جامعة الموصل، 1990م)، ص22؛ ابن إدريس، مجتمع المدينة، ص103.

(9) ابن كثير، البداية والنهاية، ج3، ص 222.

(10) ابن كثير، البداية والنهاية، ج3، ص223.

المدينة تلك الوديان لتتجمع فيها مياه السيول والأمطار من اجل الاستفادة من مياهها، ولكن بقاءها لفترة طويلة يؤدي إلى تلوثها، فتسبب المرض عند الشرب منها.

ويبدو أن الحمى التي أصابت المهاجرين هي من النوع المعروف بـ "الحمى اليومية"[11]. وان تأثيرها كان كبيرا على قابليات المسلمين، فقد ذكرت عائشة رضي الله عنها للرسول ﷺ أن المصابين من المسلمين يهذون ولا يعقلون ما يتكلمون فيه من شدة الحمى، فدعا الرسول ﷺ للمدينة فقال: "اللهم حبب إلينا المدينة، كما حببت إلينا مكة أو اشد، وبارك لنا في مدها وصاعها وانقل وباءها إلى مهيعة[12]"[13]، كما أنها أجبرت المصابين على الصلاة قعودا[14].

وكان سكان البادية أكثر المهاجرين شكوى وتضايقا من مناخ المدينة وأكثرهم إصابة بالمرض، ولم يستطيعوا التكيف مع المناخ والبقاء في المدينة، فرخص لهم الرسول ﷺ الخروج منها، وفي رواية "أن أناسا من عرين اجتووا – أي لم يناسبهم جوها – فمرضوا فرخص لهم الرسول ﷺ أن يخرجوا إلى مكان ابل

(11) ابن قيم الجوزية، شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب الدمشقي، زاد المعاد في هدي خير العباد، (دار الكتاب العربي – بيروت، د. ت)، ج3، ص 71.

(12) مهيعة: وهي الجحفة، سماها الرسول ﷺ مهيعة، وهي قرية بين مكة والمدينة على ميل من الابواء، وسميت الجحفة لان السيول اجتحفتها. بها ماء مهيعة، وهو ساكن لا يجري إذا شربته الابل يؤخذها الهيام وهي حمى الابل ولا تعيش فيها الابل، والقرية موبوءة لفساد مائها. انظر القزويني، زكريا بن محمد بن محمود، أثار البلاد واخبار العباد، (دار صادر – بيروت، 1960م)، ص125.

(13) الإمام مالك، أبو عبدالله بن انس بن مالك، الموطأ، (عيسى البابي الحلبي وشركاؤه – القاهرة، 1951)، ج2، ص 891-892.

(14) ابن كثير، البداية والنهاية، ج3، ص224.

الصدقة ليشربوا من ألبانها ويغيروا الهواء ففعلوا"[15] ويبدوا أن مناخ المدينة لم يخل من الوباء والإصابة بالحمى وتأثيراتها على المسلمين قد استمر، ففي رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: "قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه صبيحة رابعة – يعني مكة – عام عمرة القضاء، فقال المشركون: انه يقدم عليكم وفداً قد وهنتهم حمى يثرب، فأمرهم رسول الله ﷺ أن يرملوا – أي يهرولوا- وأن يمشوا ما بين الركنين ولم يمنعهم أن يرملوا الأشواط كلها إلا الإبقاء عليهم"[16].

ومنطقة الجحفة هي الأخرى لم تكن بعيدة عن الإصابة بهذا الداء فقد عانت كثيراً من الحمى المتوطنة، فالإشارات التاريخية عن وباء هذه المنطقة كثيرة، فقد قيل عنها ان: "المولود يولد في الجحفة فلا يبلغ الحلم حتى تصرعه الحمى"[17].

وتعد منطقة الجحفة إلى جانب المدينة من المناطق الزراعية، والتي فيها المستنقعات ومصادر المياه، وهذا ما يفسر لنا انتشار الحمى في هذه المنطقة، فقد

(15) الإمام مسلم، صحيح مسلم، ج5، ص101-102.

(16) الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق، محمد أبو الفضل إبراهيم، ط4 (دار المعارف – القاهرة، د. ت)، ج3، ص 23-24.

(17) ابن كثير، البداية والنهاية، ج3، ص 223؛ قال الأصمعي: "لن يولد بغدير خم مولود فعاش إلى أن يحتلم إلا أن يتحول عنها؛ انظر: ابن قتيبة، أبو محمد عبدالله بن مسلم الدينوري، عيون الاخبار، (المؤسسة العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر – القاهرة – 1936م، الجزء الثاني، ص 219.

قيل عن العيون التي فيها: "وانه ليتقي شرب الماء من عينها التي يقال عين خم فقل من شرب منها إلا حّم"[18].

كما كان في الطائف وادي يخترق المدينة ويناصفها تجري فيه مياه المدابغ التي تدبغ بها الجلود، فكانت الطيور تصرع إذا مرت بها من نتن رائحتها، فنهى الرسول محمد ﷺ عن أكل صيد الوادي أو قطع الأعشاب التي فيه كعلف[19].

ولم تكن خيبر أفضل حالا من المدينة والجحفة، فلدينا إشارات كثيرة تتحدث عن (حمى خيبر)، لأنها مخصوصة بالحمى والوباء[20]، ونجد أنفسنا مرة أخرى أمام منطقة زراعية تكثر فيها الزراعة ومصادر المياه.

ويبدو أن هذه الأمراض كانت تشتد في فترات معينة ودليل ذلك الرواية التالية: "قيل ليهود خيبر: بما صححتم على وباء خيبر؟ قالوا: بأكل الثوم، وشرب الخمر، وسكنى اليفاع، وتجنب بطون الأودية، والخروج عن خيبر عند طلوع النجم وعند سقوطه"[21]، وهناك إشارة إلى انتشار الحمى في خيبر على عهد الخليفة

---

(18) السمهودي، نور الدين علي بن جمال الدين أبو المحاسن عبدالله بن شهاب الدين بن العباس احمد الحسيني، وفاء ألوفا بإخبار دار المصطفى، (مطبعة الآداب – القاهرة، 1326هـ)، ج1، ص39.

(19) القزويني، أثار البلاد، ص 98.

(20) ابن عبد ربة، أبو عمر احمد بن محمد الأندلسي، العقد الفريد، ط2، (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر-القاهرة، 1952)، ج3، ص436، الثعالبي، أبو منصور عبدالملك بن محمد ابن إسماعيل النيسابوري، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، (مطبعة المدني – القاهرة، 1965م)، ص549-550، عن خيبر واخبار الحمى فيها انظر: القزويني، آثار البلاد، ص92.

(21) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج6، ص306.

عمر بن الخطاب رضي الله عنه[22]، وهي زيادة حادة فيما يسمى بـ (مرض خيبر).

ولم تخل اليمن من مناطق موبوءة بالإمراض المتوطنة، ففي رواية عن فروة بن مسيك المرادي، قال: "قلت يا رسول الله أن أرضا عندنا يقال لها آبين هي ارض ميرتنا وريفنا وهي وبئة شديدة الوباء، فقال له النبي ﷺ: دعها فان من القرف التلف"[23].

وكان مرض الجذام بين أهل الحجاز معروفا وكثيرا نظراً لشدة الحرارة التي تحرق بشرتهم وتؤثر على أمزجتهم[24]، فضلا عن مدينة صنعاء أيضا التي تعد من اكبر مدن اليمن وأكثرها سكانا ينتشر مرض الجذام بين أهلها[25].

وأولى المناطق المصابة باستمرار بحمى الملاريا في العراق منطقة البطائح – الاهوار – التي وصفها المقدسي بقوله: "والبطائح، نعوذ بالله منها، ومن

---

(22) البلاذري، أبو الحسن احمد بن يحيى، فتوح البلدان، تحقيق، رضوان محمد رضوان (دار الكتب العلمية – بيروت، 1978م)، ص36.

(23) الرازي الصنعاني، احمد بن عبدالله، تاريخ مدينة صنعاء، تحقيق: حسين عبدالله العمري وعبدالجبار زكار، (د.م – صنعاء، 1974م)، ص 144.

(24) القزويني، أثار البلاد، ص86، والجذام: مرض جلدي مزمن يصيب اليدين والقدمين والتي تتآكل شيئا فشيئا ويتغير لون الجلد ويضعف إحساس الأعصاب التي تصاب بالخدر وبالذات في الوجه والأنامل وتظهر درنات الوجه وتتقرح وتتقيح الأصابع ثم تنبعث منها رائحة كريهة ثم تتساقط تلك الأطراف، وهو من الأمراض المعدية، انظر: عبدالله، عمر محمود، الطب الوقائي في الإسلام، (مطبعة الزهراء الحديثة- الموصل، 1990) هامش ص 74.

(25) ابن حوقل، أبو القاسم النصيبي، صورة الأرض، (منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، 1979م)، ص 43.

شاهدها في الصيف رأى العجب، إنما ينامون في الكلل، وثم بق له حمة كالإبرة وإنما هي نحره"[26]، ولمنطقة البطائح تأثير سيء على بعض المناطق المجاورة لها كالبصرة وواسط، التي "كثيرا ما يفسد هواؤها باختلاف هواء البطائح بها فيفسده"[27].

أما مدينة الاحواز فقد كانت أكثر المدن المعروفة بانتشار الحمى بين سكانها، وقال عنها الجاحظ: "أن قصبة الاحواز مخصوصة بالحمى الدائمة اللازمة القتالة للغرباء، على أن حماها ليست إلى الغريب بأسرع منها إلى القريب"[28]، وما يدلل على كثافة انتشارها بين السكان، ما حكي" عن القوابل بها أنهن ربما قبلن الطفل المولود فيجدونه في تلك الساعة محموما...."[29].

(26) محمد بن احمد أبي بكر المقدسي البشاري، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ط2، (مطبعة بريل – مدينة ليدن، 1906م)، ص125، وقد ذكر الثعالبي التأثير السيئ لبق البطائح على الإنسان، انظر: ثمار القلوب، ص 504.

(27) القزويني، أثار البلاد، ص 478، وذكر عن البصرة قول الجاحظ: "من عيوب البصرة اختلاف هوائها في يوم واحد، فإنهم يلبسون القمص مرة والمبطنات مرة لاختلاف جواهر الساعات"، ص310، وانظر ما قاله عن الحويزة: "وهي كورة بين واسط والبصرة وخورستان في وسط البطائح في غاية الرداءة من حيث الهواء والماء والزرع والضرع"، أثار البلاد، ص358.

(28) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، كتاب الحيوان، تحقيق: محمد الساسي، (د.م – القاهرة، 1323- 1325م)، ح4، ص 142؛ الثعالبي، لطائف المعارف، تحقيق: إبراهيم الابياري وحسن كامل الصيرفي، (دار الاحياء الكتب العربية – القاهرة، د. ت)، ص 175؛ ثمار القلوب، ص 550.

(29) الثعالبي، لطائف المعارف، ص 175؛ ثمار القلوب، ص 152؛ وقال عنها القزويني: "هواؤها قتال خصوصا للغرباء، ولا تنقطع حماها ولا ينكشف وباؤها البتة وأهلها في عذاب اليم"، أثار البلاد، ص 152.

ولقد وصفت وجوه الناس فيها بأنها، "مصفرة مغبرة لا ترى فيها وجنة حمراء قط"[30]، مغايرة لوجوه الناس في باقي البلاد الإسلامية الأخرى، ومن الواضح أن الاستعدادات الصحية غير الكافية والمناخ الرطب الحار وكثرة المياه الراكدة، ووفرة البعوض ساعد على انتشار الملاريا في تلك المنطقة، ولدينا إشارات عن بعض المدن القريبة من الأحواز تتحدث عن انتشار هذا المرض فيها[31].

ومن طبيعة مدينة الاحواز وعيوبها: "جميع أصناف الطيب تستحيل رائحته فيها جدا، حتى لا تكاد توجد له رائحة، وذلك من كثرة الرطوبات، وغلظ الهواء، والأبخرة الفاسدة.... ويقال أن الخيل لا تنزو بها ولا تصهل، وأنها تعتلف الحشيش دون التبن، لما يلحقها من الربو، لنداوة البلد وعفونته"[32].

ويقول ابن رسته أيضا عن شعبتي دجلة: "منها تجنح السفن ويحمل بعض ما فيها من الزواريق في هاتين الشعبتين فتجري إلى موضع كثير الماء في البطيحة، فتمر بهما الزواريق في شبه أزقة من قصب حتى تنتهي إلى موضع ليس فيه قصب ولا نبات إلى ماء صاف يسمون ذلك الموضع الهول – الهور –

(30) الصطخري، أبو إسحاق إبراهيم بن محمد المعروف بالكرخي، المسالك والممالك، تحقيق؛ محمد جابر عبدالعال، (وزارة الثقافة والرشاد القومي – مصر، 1961م)، ص 76.

(31) القزويني، آثار البلاد، ص 152، وقال عن حشراتها: "ومن محنها شدة الحر وكثرة الهوام الطيارة والحشرات القتالة"؛ وقال المقدسي عن: "الصليق مدينة على بحيرة طولها أربعون فرسخا يتصل ضياعها بسواد الكوفة شديدة الحر كربة بليذة بق مهلك، وعيش ضيق ادامهم السمك وماؤهم حميم وليهم عذاب وعقلهم سخيف ولسانهم قبيح مع ملح قليل وكرب عظيم"، انظر: آثار البلاد، ص 119.

(32) النويري، نهاية الأرب، ج1، ص361.

وبين هذه الأزقة مواضع متخذة من قصب أشباه الدكاكين عليها أكواخ يكتنون بها من البق"[33].

والى جانب منطقة البطائح هناك المدائن، التي استقر فيها الجيش العربي الإسلامي في بداية الأمر قبل أن تمصر الكوفة والبصرة، فعن "أبي عوانة عن حصين بن عبدالرحمن قال لما هزم الناس يوم جلولاء رجع سعد بالناس، فلما قدم عمار خرج بالناس إلى المدائن فاجتووها، قال عمار هل تصلح بها الابل؟ قالوا: لا ان بها البعوض"[34]، ولما اجتوى المسلمون المدائن بعدما نزلوها وآذاهم الغبار والذباب والبعوض، يروي الطبري أن حذيفة بن اليمان كتب إلى الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "... أن العرب قد اترف بطونها، وخفت اعضادها، وتغيرت ألوانها... وكتب عمر إلى سعد: انبئني ما الذي غير ألوان العرب ولحومهم؟ فكتب إليه: أن العرب خددهم وكفى ألوانهم وخومة المدائن ودجلة"[35]، ويروي البلاذري ان جيش المسلمين "أصابهم البعوض، فكتب سعد إلى عمر يعلمه ان الناس قد بعضوا وتأذوا"[36]، فضلا عن انهم "استوخموها واستوبؤها".

يتضح من هذا النص مدى تأثر القبائل العربية بأجواء هذه المنطقة وتأثيره السيئ في أجسادهم وألوانهم، فكان رد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "أن العرب لا يوافقها إلا ما وافق إبلها من البلدان، فابعث سلمان رائدا وحذيفة – وكانا

(33) الاعلاق النفيسة، ص 185.

(34) البلاذري، فتوح البلدان، ص 274-275.

(35) تاريخ الرسل، ج4، ص 40، 41، 42.

(36) فتوح البلدان، ص 275.

رائدي الجيش – فليرتادا منزلا بريا بحريا، ليس بيني وبينكم بحر ولا جسر..."[37]، فاختارا الكوفة لأنها "ارض انحدرت عن الفلاة، وارتفعت عن المياه"[38]، فكان ذلك أحد الأسباب التي أدت إلى تأسيس مصر جديد عرف باسم الكوفة.

ومن هنا نلحظ مسألة الاهتمام بتوفر الشروط الصحية في المدينة، ونلحظ أيضا أهمية العامل الصحي من بين العوامل الأخرى في اختيار مواقع المدن، فقد حرص المسلمون على اختيار المكان الذي يبغون بناء مدينة فيه ان يخدم غرضا صحيا، فاشترطوا ان يكون خاليا من الحشرات غير موبوء ولا وخم الهواء، ولا منخفضا وان يكون مريحا للنفس[39]، وقد روعي ذلك في اختيار المدن الإسلامية منذ صدر الإسلام كالكوفة والبصرة والفسطاط والقيروان وواسط والرملة والرصافة وبغداد وسامراء وغيرها.

وعرفت المشان وهي بليدة قريبة من البصرة بـ "وخامة الهواء وملوحة الماء وكثرة المرض"[40]، وقيل عن مدينة حلوان: "هي وبئة ردية الماء كبريتية"[41]، ووصفت الموصل بان "خريفها كثير الحمى يكون سنة سليمة، والأخرى موبئة،

(37) الطبري، تاريخ الرسل، ج4، ص 41.

(38) البلاذري، فتوح البلدان، ص 275.

(39) كاطع، مؤيد عيدان، الخدمات الصحية في العراق خلال العصر العباسي "132-656هـ/749-1258م"، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الموصل: 1985م، ص21 وما بعدها.

(40) القزويني، أثار البلاد، ص 460، وقال أيضا عن المشان: "إذا سخط ببغداد على احد من أهل الفساد ينفي إلى المشان، ليتأدب بالغربة ووخامة الهواء وملوحة الماء وكثرة المرض" انظر: آثار البلاد، ص 460.

(41) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج2، ص 290-291.

يموت فيها ما شاء الله"[42]، ووصف جغرافيو العرب المسلمين الجزيرة الفراتية بـ "كثرة الدماميل"[43]، وهو من الأمراض الجلدية.

وعرفت بلاد الشام بـ "كثرة طواعينها"[44]، وعرفت مدنه الكثير من الأوبئة والأمراض المتوطنة، فمدينة نصيبين الكثيرة المياه والأشجار والبساتين، قيل عنها "ظاهرها في غاية النزاهة، وباطنها يضاد ظاهرها، وهي وخمة لكثرة مياهها وأشجارها مضرة سيما بالغرباء فانه قلما تخطئ سهامها في الغرباء"[45] وتميزت المصيصة بشدة الحرارة المحرقة حتى قالوا أن" من أطال الصوم بالمصيصه في الصيف هاج به المرة السوداء، وربما جن..."[46].

ولم تسلم الأردن التي فيها بحيرة طبرية المنتنة هي الأخرى من الإصابة، "فقد يهيج المرض في بعض الأعوام فيهلك أهل القرى الذين هم حولها كلهم حتى تبقى خالية مدة، ثم يأتي فيسكنها من لا رغبة له في الحياة"[47]، وهناك قرية صغر – أو زغر – بالقرب من بيت المقدس وتقع على طرف البحيرة المنتنة فقد وصفت

---

(42) القزويني، آثار البلاد، ص 461.

(43) ابن قتيبة، عيون الاخبار، ج2، ص220؛ الجاحظ، الحيوان، ج4، ص 137؛ القزويني، أثار البلاد، ص 352؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج2، ص 134.

(44) ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، ص 118؛ الثعالبي، لطائف المعارف، ص 234.

(45) القزويني، آثار البلاد، ص 468.

(46) ابن رستة، الاعلاق الخطيرة، ص 83.

(47) القزويني، آثار البلاد، ص 141-142؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج4، ص18، وانظر ما قاله المقدسي عن طبرية: أحسن التقاسيم، ص 161.

بأنها في "واد وخم رديء في أشام بقعة، ويهيج بهم الوباء في بعض الأعوام فيفني جلهم"[48].

ويروي ياقوت الحموي أن احد الأشخاص حدثه عن مرض زغر قائلا: "بلغني أن في بعض الأعوام هاج بهم ذلك – المرض – حتى هلك أكثرهم، وكان هناك دار من أعيان منازلهم وفيها جماعة تزيد على العشرة أنفس فوضع فيهم الموت واحدا بعد الآخر حتى لم يبق منهم إلا رجل واحد....."[49].

وهناك على القرب من زغر بلدة "بيسان" في الأردن، وهي بين حوران وفلسطين، وتوصف بكثرة النخل، وهي بلدة وبئة حارة، أهلها سمر الألوان جعد الشعور لشدة الحر الذي عندهم"[50].

والملاحظ على المدن والقرى المذكورة آنفا، أنها مناطق زراعية تكثر فيها الأشجار والبساتين ومصادر المياه، أو تكون في واد عميق بعيد عن مهب الرياح والهواء فيها ساكن حار وخم.

وعانت مصر مصائب الأوبئة والأمراض المختلفة في فترات عدّة من تأريخها الإسلامي، فكان ذلك مدعاة للمؤرخين لإطلاق تسميات مخيفة لوصف الوباء[51] وتأليف المصنفات التي أفردت لهذه الأوبئة والأمراض.

(48) القزويني، آثار البلاد، ص 93؛ وانظر: المقدسي، أحسن التقاسيم، ص 178.

(49) معجم البلدان، ج2، ص143.

(50) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج2، ص527.

(51) المقريزي، تقي الدين احمد بن علي، المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية، (مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة – د. ت)، ج1، ص45.

ويذكر المسعودي أن وقوع الوباء في مصر قد يأتي من هبوب الرياح المريسية[52]، ودوام هبوبها لأربعين يوماً[53]، كما يرى أن الزيادة المفرطة في منسوب نهر النيل يحدث الوباء بمصر عند انصرافه، ومشيراً لذلك عند حديثه عن مقاييس النيل وعلاقته بالخراج "... وان كانت الزيادة ثمان عشر ذراعا كانت العاقبة في انصرافه حدوث وباء بمصر...."[54].

ويؤكد المقريزي ما ذهب إليه المسعودي بقوله: "والنيل ليس يحدث في الأبدان كل سنة مرضا، ولكنه إذا أفرطت زيادته ودام مدة تزيد على العادة، كان ذلك سببا بحدوث المرض الوافد..."[55] ، ويضيف أن حدوث الأمراض الوافدة[56]، "تكون عن أسباب كثيرة يجتمع في أجناس أربعة وهي تغير كيفية الهواء، وتغير كيفية الماء، وتغير كيفية الأغذية، وتغير كيفية الأحداث النفسانية"[57]، ويرجع الطبيب العربي المشهور ثابت بن قرة ان أسباب الأمراض وكثرتها وحدتها إلى تغير تلك الكيفيات[58].

---

(52) أبو الحسن علي بن الحسين بن علي، التنبيه والإشراف، (مكتبة الخياط للطباعة، بيروت، 1965م)، ص 19؛ وقال عن الرياح المريسية "وهي الرياح الجنوبية التي تأتي من بلاد النوبة، وهي باردة تقطع الغيوم وتصفي الهواء، وتهب على مصر في شهر كانون الأول وتدوم أربعين يوما"، وانظر ما قاله المقريزي، الخطط، ج1، ص 45.

(53) المسعودي، التنبيه والإشراف، ص 19؛ الثعالبي، ثمار القلوب، ص 656.

(54) المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، (دار الأندلس، بيروت، د. ت)، ج1، ص 378.

(55) الخطط، ج1، ص 47.

(56) يعرف المقريزي الأمراض الوافدة: بأنها "ما تعم خلقا كثير في بلد واحد وزمان واحد ومنه نوع يقال له الموتان، وهو الذي يكثر معه الموت"، الخطط، ج1، ص47.

(57) المقريزي، الخطط، ج1، ص47.

(58) الذخيرة في علم الطب، ص 167.

ويتحدث المقريزي عن وقوع الأمراض المحلية الموسمية في مصر والتي يطلق عليها تسمية (الأمراض البلدية)[59]، وتحدث من تغير الفصول وما يصاحبها من اختلاف في درجات الحرارة والرطوبة والرياح[60].

ويذكر جالينوس في كتابه "الحميات" ذلك بقوله واعلم أن كل ما كان تغير أهوية الفصول أكثر كانت العلل أخبث، فان الأمراض التي تعم كثيرا من الناس أن كانت مهلكة سميت "الموتان" وان كانت سليمة سميت "الأمراض الوافدة" وان كانت ما يخص بلدا دون بلد سميت "بلدية"[61].

إن اختلاف المناخ بين مدينة وأخرى وكان له تأثير في طبائع أهل كل مدينة وأمزجتهم[62]، ويذكر أن الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين فتح الله عليه البلاد وعلى المسلمين من العراق والشام ومصر كتب إلى حكيم من حكماء العصر: "أنا لناس عرب قد فتح علينا الله البلاد ونريد أن نتبوأ الأرض ونسكن البلاد والأمصار فصف لي المدن واهويتها ومساكنها وما تؤثره الترب والاهوية في سكانها فكتب إليه: وأما أرض مصر فأرض قوراء غوراء ديار الفراعنة ومساكن الجبابرة ذمها أكثر من مدحها هواؤها كدر وحرها زائد وشرها مائدة تكدر الألوان والفطن وتركب الإحن..."[63].

وبعد هذا العرض لأهم المناطق التي كانت مصابة بالأمراض المتوطنة، نلحظ أن النصوص المتقدمة لا تتحدث عن أمراض معينة محددة – إلا في بعض

(59) المقريزي، الخطط، ج1، ص 46.
(60) المقريزي، الخطط، ج1، ص 46.
(61) ثابت بن قرة، الذخيرة في علم الطب، ص 168.
(62) المقريزي، الخطط، ج1، ص 48.
(63) المقريزي، الخطط، ج1، ص 50.

الأحيان – وإنما الحديث عن الحمى بصفة عامة، دون أن يكون تحديد في تلك الروايات فيما إذا كان المرض في ذاته حمى أو كانت الحمى عارضا لأمراض أخرى(64).

ولكي نجزم في هذه المسألة أو أن تكون أجابتنا مقنعة على الأقل، يجب علينا الحصول على مزيد من النصوص والمعلومات المحددة المتعلقة بتلك الأمراض، ويمكن القول حين ندقق النظر في النصوص المدروسة آنفا، أن الحمى لم تكن مرضا بحد ذاته في كل تلك البيئات والحالات، بل هي عارض من أعراض أمراض أخرى كالحصبة والسل والملاريا والبلهارزيا.

فقد جزم الأطباء أن كل منطقة فيها بطائح وسباخ تكون مياهها "حارة غليظة في الصيف لركودها ودوام طلوع الشمس عليها، وهي تولد فيمن شربها المرة الصفراء، وتعظم لذلك اطحلتهم.. ويصيبهم الربع – حمى الربع – والسل وتقصر أعمارهم"(65).

أما مرض الملاريا والبلهارزيا فان أسباب انتشارهما في بعض المدن يعود إلى سوء التجهيزات الصحية مثلا – ولا سيما نظام المجاري وقنوات المياه الآسنة والتصريف الداخلي، نجد ذكرها في بعض المدن، ولدينا نص عن مدينة الاحواز يشرح لنا سوء التجهيزات الصحية وعدم توفر وسائل الوقاية والنظافة، حيث جاء فيه: "ومن بليتها أن من ورائها سباخا ومنافع غليظة، وفيها انهار تشقها مسايل كنفهم ومياه أمطارهم، فإذا طلعت الشمس وطال مقامها واستمرت مقابلتها

---

(64) انظر: النصوص السابقة ولاسيما النصوص المتعلقة بالعراق.

(65) ابن ربن الطبري، أبو الحسن علي بن سهل، فردوس الحكمة في الطب، (مطابع فتاب – برلين، 1928م)، ص 504-505.

لذلك الجبل قبل الصخرية التي فيها الجرارات – وهي عقارب قتالة – فإذا امتلأت يبسا وحرا، وعادت جمرة واحدة قذفت ما قبلت من ذلك عليهم وقد أبخرت تلك السباخ والأنهار، فإذا التقى عليهم ما أبخر من تلك السباخ وما قذفه ذلك الجبل فسد الهواء وفسد بفساده كل شيء يشتمل عليه ذلك الهواء"[(66)]، وكثيراً ما كان تصريف المياه الآسنة عبر مجاري وقنوات قد تكون مكشوفة أو تكون مخفية تمتد إلى الأنهار والوديان، مما يؤدي إلى تلويث مياهها، وهذا الأمر لقي معارضة من الدولة التي أصدرت أمرا منعت بموجبه صرف المياه الآسنة والفضلات إلى الأنهار [(67)].

يضاف إلى ذلك أن ازدهار الزراعة في بعض المدن يتطلب وجود نظام ري جيد، يتمثل بشبكة كبيرة من القنوات والسواقي، وتهيئ هذه الشبكة المتفرعة أفضل مناخ لانتشار الأمراض وعلى الأخص الملاريا والبلهارزيا، فينتشر مرض الملاريا بواسطة البعوض، ومرض البلهارزيا بواسطة القواقع، وكلاهما يعيشان في مثل هذه البيئة[(68)].

فضلا عن أن هناك بعض العوامل المحلية التي تسبب المرض وتزيد حدته، ففي فصل الفيضان في العراق، تزيد مساحة الأرض المغمورة بالمياه، وتتعرض

(66) ابن قتيبة، عيون الاخبار، ج2، ص220؛ القزويني، أثار البلاد، ص 152؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج1، ص 286.

(67) منع الخليفة العباسي المقتدي أصحاب الحمامات ان يصرفوا فضلاتها إلى نهر دجلة وإلزامهم بحفر آبار لتلك المياه الآسنة صيانة لمياه الشرب، ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص 111.

(68) لاحظنا في المناطق الزراعية والمغمورة بالمسطحات المائية في النصوص المدروسة السابقة ذكر للبعوض وتأثيره السيئ في الإصابة بمرض الملاريا، كما نلحظ وجود إصابات بمرض البلهارزيا في مناطق تشتهر بزراعة الأرز.

أنظمة الري وقنواته إلى التخريب والدمار، فتتسع بذلك المساحات التي ينتشر فوقها البعوض(69)، ونسمع في مكة والمدينة المنورة عن السيول التي تحدث نتيجة الأمطار الغزيرة، والتي تسبب في بعض الأحيان الفيضانات، وعلى الرغم من وجود عدد من الوديان لتصريف هذه المياه، إلا ان غزارة الأمطار تملا هذه الأودية، فتعبرها المياه إلى الأراضي الزراعية التي على جوانب الأودية فتغرقها وتغرق المنازل والطرقات فتبقى المياه مدة أيام وأسابيع حتى تبدأ بالانخفاض(70)، كما كانت السيول تجرف معها النفايات إلى تلك الوديان والآبار التي كانت تتزود بمياه السيول(71).

أما الحمى بوصفها مرضاً في حد ذاته، فان مناطق انتشارها يتفق مع المناطق ذات الحرارة العالية والرطوبة المرتفعة، ويمكن الاستدلال من خلال النصوص المدروسة على المناطق المصابة بهذا المرض(72). كما أشارت نصوص أخرى إلى مرض الجذام والربو وأسبابه(73).

(69) البلاذري، فتوح البلدان، ص 290؛ ابن رسته، الاعلاق الخطيرة، ص 94؛ وانظر سترك، البطيحة، ترجمة: محمد ثابت الفندي وآخرون، (دائرة المعارف الإسلامية، المجلد الثالث)، ص 682-683.

(70) مالك، الموطأ، ج1، ص 191.

(71) جاء في حديث "عن أبي سعيد الخدري قال: قيل ثم يا رسول الله أنتوضأ من بئر بضاعة وهي بئر يلقى فيها الحيض ولحوم الكلاب والنتن، فقال رسول الله ﷺ: أن الماء طهور لا ينجسه شيء"، والحديث يفصح عن ما تنقله مياه السيول من فضلات ونجاسات؛ حديث حسن؛ الترمذي، محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي، الجامع الصحيح سنن الترمذي، تحقيق: احمد محمد شلكر وآخرون، (دار احياء التراث العربي – بيروت، دت)، ج1، ص 95.

(72) انظر: النصوص الخاصة بالمدينة المنورة والموصل

(73) انظر: النصوص الخاصة ببلاد نجد والحجاز واليمن.

وفـي الختـام لابـد مـن القـول ثانيـة أن الأمـراض المتوطنـة ذات اثـر كبيـر وبـالغ فـي الشـعوب والجماعـات فضـلا عـن النـواحي الاقتصـادية لتلـك المجتمعـات، لتوطنها وتأثيرها المستمر على سكان المنطقة ولفترات زمنية طويلة، فتضـعف مـن قدرتهم على العمل والإنتـاج، فضـلا عن مـا تسجله هذه الأمراض مـن إحصـائيات كبيرة في الوفيات في بعض السنوات التي يزداد فيها المرض المتوطن زيـادة حـادة، فإذا علمنا أن وسائل العلاج وطرائقه لم تكن متوفرة أو بسيطة[74]. أمكننـا أن نـدرك لمـاذا قيـل فـي بعـض النصـوص: "ويهـيج بهـم الوبـاء فـي بعـض الأعـوام فيفنـي جلهم"[75].

وأمـا فيمـا يتصـل بتـأثير هـذه الأمـراض فـي الناحيـة الاقتصـادية، فـان هذه الأمراض تعد عـاملا مـن عوامـل تحديـد الزراعـة وعـدم التوسـع فـي مسـاحاتها ولاسيما مرضـى الملاريـا والبلهارزيـا، هذا إلـى جانـب العـزوف عـن زراعـة بعـض الأنواع من المحاصيل أو التوسع بزراعتهـا، أضـف إلـى ذلك ضـعف الإنتـاج وقلتـه فـي المنـاطق المصـابة بمثل هذه الأمراض لمـا لـه مـن تـأثير علـى قابليـات سكانها

(74) هذا إلى جانب أن الوسائل والطرق الوقائية كانت بسيطة وشعبية ومن الوسائل الشعبية لمقاومة البعوض والبرغوث: "من وضع غصن العنب في موضع تحت سريره لم يقربه بق ولا بعوض، ومن أراد ألا يتأذى بالبراغيث فليحفر في وسط البيت حفرة ويملأها دم تيس فان البراغيث تجتمع هناك، وان وضع في الحفرة دفلي ماتت البراغيث."، انظر: أبو حيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، بيروت-1953م)، ج1، ص 193.

(75) القزويني، آثار البلاد، ص 93.

وقدراتهم، وفي زيادة أعداد سكانها لتأثيرها المستمر على معدلات الولادات والنمو فيها [76].

(76) أن الأمراض المتوطنة على اختلاف أنواعها شديدة التأثير على الأطفال الحديثي الولادة، ويمكن أن نلمس ذلك في بعض النصوص المدروسة سابقا جاء في بعضها:

"... ربما قبلن الطفل المولود فيجدونه في تلك الساعة محموما...".

"كان المولود يولد في الجحفة فلا يبلغ الحلم حتى تصرعه الحمى:".

"ولم يولد بغدير خم مولود فعاش إلى أن يحتلم إلا أن يتحول عنها".

Abstract

The Economical and Residential Signs of Settling Diseases during the Early Islamic Ages

Mohanad Nafa Al-Mukhtar(*)

This search is a study of residential and settling diseases like malaria, bilharziasis, fever, T.B and leprosy. It aims at standing on its economical and residential traces through studying of many cities and districts of Islamic states. They are studied by many historical and geographical references and other authorities. It also attempts the attempting to know the factors which helped behind spreading of these diseases. It is to be geographical factors noted that came at the leading position of the sefactors factors. Cause The geographical environment plays a role in existing these diseases. Similarly the weather and its changes time and its change.within the seasons Changer in temperatures, moisture and winds. Partrcularly could be a logical reasons.

(*) Dept. of Philosophy - College of Arts / University of Mosul.

In addition to another factors like carelessnes in the sanitary supplements especially the system of draining and water canals and internal draining, beside to the floods that happened. The refore, great areas summarize them were overflown with water .

This paper has come up with important results and we can in the following points:

1. Diseases have great effect in the life of people and in the economical affairs for these societies because they have continuous effect.
2. Huge statistical in figures Mortality were recoededin the year which the diseases became active.
3. Reduction in production in the effected areas by these diseases, and weakening the abilities of those who infected by this disease to work and produce.
4. Many diseases have great impact on agriculture and its expanision in especially malaria and bilharziasis.
5. leaving planting many kinds of crops because its connection with many insects which caused disease, like rise planting and its connection with existence of bilharziasis worm which causes the disease.
6. Effectting on the averages of morbidity and residential growing.